

الرسول في كتب العصر

الحديثة

الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

يقوله عن رجال الدين في عصره ،
كانه يتكلم عن نبي الاسلام وأئمة
المسلمين .

ولم يشأ فولتير أن يهجم على
سلطان رجال الدين في الغرب هجمة
صريحة . وكان يهجم عند كتابة تلك
المسرحية أن يعلن آراءه ولا يتعرض
من جرائمه للسخط والحرمان ،
فاتخذ لها ذلك الأسلوب المنحرف ،
ولم يكثر الحقائق التاريخية
ولا الأدب في الخطاب ، ونسب
إلى النبي عليه السلام أموراً كان
يريد أن ينسبها إلى الجامدين من
رجال الدين في عصره ، فلم يخف
قصده على العارفين ، ولا ماله هؤلاء
على التوائه ، وعلى نفاقه وريائه ،
وكان من هؤلاء اللاتمين نابليون
الكبير في حديثه مع الشاعر الألماني
جيمى فابيه أنكر تلك الصورة

حديثنا اليوم عن الرسول في
كتب الغرب الحديث .

والمصطلح عليه أن العصر
الحديث يبدأ في الغرب من منتصف
القرن الثامن عشر : عصر الحرية
والعلم والثورة على القديم .

ومفتاح كل سر من أسرار ذلك
العصر المضطرب هو هذه الكلمة .
كلمة الثورة على القديم . فقد كان
لهذه الثورة أثرها في آراء المتكلمين
من أبناء ذلك العصر عن نبي
الاسلام عليه السلام .

كان أنصار التجديد يعلنون
الثورة على الجامدين من رجال الدين
ومنهم من كان يوارى ويوارب
فيتخذ لهذه الثورة أسلوباً غير
الأسلوب الصريح ، وعكفاً صنع
فولتير في المسرحية التي كتبها باسم
محمد ، وقتل فيها كل ما أراد أن

وأصبح الاطلاع عليها بدعة مخمودة
بين طلائع الثقافة والتبحر في
الاطلاع ، فظهرت الكتابة عن
الاسلام ، وعن نبي الاسلام ، على
نهج جديد .

إذا كان فولتير نموذجاً للكتابة
الغربية عن الرسول في القرن الثامن
عشر ، فإن توماس كارليل هو
النموذج الصادق لهذه الكتابة في
القرن التاسع عشر ، وقد كانت
كتابه عنه متسمة بسمة الإعجاب
والإنصاف ، لا يفتقر من فيلسوف
غير مسلم أن يكتب خيراً منها عن
نبي الاسلام ويكفي للدلالة
على موقف كارليل أنه أراد أن يختار
مثلاً واحداً للبطولة في صورة النبي
 فلم يجد أحداً أحق بالاختيار
في هذا المقام من محمد عليه السلام
وكان من همه أن يفند كل شبهة
شائعة عن الدعوة الإسلامية في
مبدأها ، فقال إن الذين يزعمون
أن محمداً نشر دعوته بالسيف
لا يتصورون مايقـ ولون ، فقد
كانت دعوة محمد دعوة رجل
واحد أمام قوم مجمعين على تكذيبه

الشوهاد ، وقال إنها لا تصدق على
محمد . . . أن محمداً لرجل عظيم ،
ولا يجمعـ لـ تصوير العظماء بهذا
الأسلوب .

ويعتبر كلام فولتير عن الرسول
نموذجاً للصرامة المبرقة في الحملة
على أنصار اليهود ، وقد كان كل
كلام عن الرسول من هذا القبيل ،
يجمع بين الرياء والجهل بحقيقة
الإسلام .

ثم انتهى القرن الثامن عشر
وأقبل القرن التاسع عشر بحالة
نفسية وحالة فكرية غير تلك الحالة
أقبل بمعرفة أوفى وحرية أصرح
واقوى ، فمن تكلم عن محمد عليه
السلام فأنما كان يتكلم عن علم لم
يكن ميسوراً للغربيين قبل ذلك ،
إذ كان العارفون منهم باللغة العربية
وباللغات الشرقية عامة قليلين ، وكان
المنقول من كتب الدين الاسلامي
نادراً مشوهاً محصوراً في المشتغلين
به من الباحثين المتفرغين للدراسات
الشرقية . فلما أقبل القرن التاسع
عشر كثرت هذه الكتب ووصل
السلام بها إلى شير المستشرقين ،

وليس أعجب من صورة رجل
واحد يحمل السيف ليقنع به كل
منكريه .

ولقد تقدمت دراسة التاريخ في
القرن العشرين ، وتتبع الأوروبيون
أصول حضارتهم فعرفوا أنها مدينة
بالقسط الوافر للحضارة الإسلامية
وأن عصر العرب في الأندلس كان
من العصور الذهبية في تاريخ القارة
الأوربية ، وعمل رد الفعل عمله
فكان أشد الناس إعجابا بالحضارة
العربية أولئك الكتاب الذين نشأوا
في الأندلس نفسها ، وفتحوا
عيونهم حيث بلغ التعصب على
العرب غاية مداه . فإذا قرأت كتابهم
الأشهر هـ بلاسكو إبانيز ، لمست في
كلامه حسنا عميقا على زوال
الحضارة العربية من الأندلس وحنينا
واضحا إلى العهد الذي ازدهرت
فيه تلك الحضارة ؛ وقد ختم بعض
فصوله عنها قائلا : « ولت ساعة
العلم وانزوت الفكرة الأسبانية في
غياهب الظلمات ، حيث ترتعد بردا
في عزلتها المضنية ، ونحو شيئا فشيئا
إلى أن تموت ، ولأن بقيت منها بقية

فهي تلك التي تنصرف إلى الشعر
والمسرح والجلال الديني ؛ منذ كان
العلم يقضى بصاحبه إلى نار الحريق . »
هذه النظرة إلى تاريخ الحضارة ،
وإلى المقارنة بين الحضارات —
قد كان لها أثرها في تعديل الميزان
الذي يوزن به رسل الأديان ؛
وأولهم رسول الاسلام .

فمن كتب عن محمد عليه السلام
في القرن العشرين ، علم أنه مطالب
— بحكم العصر الذي يعيش فيه —
أن يقول شيئا يوافق العلم ولا ينسب
إلى التعصب والجهالة ، فلا يزن
محمدًا بميزان غير الذي يزن به
الرسل والأنبياء من سائر الملل
والدعوات ؛ ومن لم يكن من هؤلاء
الكتاب مرتزقا بالدين فهو بخجل
من التحامل على صاحب دين كبير
لغير سبب ، إلا أنه ولد على غير
دينه ؛ وهو يرى عقله من وضمة
التعصب الضيق بمحاولة الانصاف
ما استطاع .

بل وجد من أولئك الكتاب
من يشره أن يسمع أحدا يعيب
على النبي إنه « راعي ابل » فيجيبه

الغرض . فان الاخبار التي لا داعية
لثبوتها فيها تصوره لنا في صورة رائعة
من الجمال ، بوجه مليح فطن ، وعينين
سوداوين نفاذتين وحمة سابعة ،
ورصانة في القول وبلاغة صارمة ،
مع عطف في أطيب حالاته ، وحنان
على الأطفال .

وينبغي أن نذكر أن هؤلاء
الكتاب غير مسلمين ، فهم لا يقولون
في النبي كل ما يقوله المسلم ، ويكفي
منهم أنهم لا ينكرون كل ما يقوله عن
نعت أو مكابرة بغير دليل .

وظهر في هذه السنة كتاب
عن الاسلام لمؤلفه «الفريد غليوم»
أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة لندن
قال فيه عن نبي الاسلام : «علينا من
المبتدأ أن نقرر أن محمدا كان واحداً
من أعلام التاريخ العظماء وكان
يقينه الغالب أنه لا إله إلا الله ، وأنه
يدعو إلى ملة واحدة ، وكانت قدرته
على التدبير بين المشاكل المعقدة التي
كانت تواجهه قدرة خارقة بغير مراء ،
فما استطاع عربي بقوة الجيوش
والشرط والدواوين أن يجمع شمل
قومه كما فعل . فان قيل أن العالم

صاحبه أن أتباع ذلك النبي قد تعلموا
عنه درساً غير الذي تعلمته من
دينك ، فإنهم يسمون تلاميذ السيد
المسيح بالحواريين ، وكان في
وسمهم أن يقولوا عنهم أنهم جماعة
من الصيادين !

وإذا قلنا ان المرتزقة بالدين هم
وحدهم الذين يصرون على بضاعة
الغيب والتجريح ، فليس معنى ذلك
أن رجال الدين الأوروبيين جميعاً
ينسكرون فضل النبي ويستبيحون
الغيب فيه ، بل معناه أن هذا الخلق
الشائن محصور في طلاب الرزق
باسم الدين . . . أما العلماء الدينيون
فمنهم أناس يحاسبون أنفسهم وأقلامهم
ويجتهدون في قول الحق على حسب
طاقتهم ، وقد كتب أحدهم الدكتور
بوكيه كتاباً عن الأديان المقارنة
فقال عنه «انه نشر في الشرق مثلاً
أعلى للحكم والأخلاق الإنسانية
أوسع وأنظف وأحدث وأقوى
من أمثلة الدولة البيزنطية . . . ثم
قال : «وأن الحكم على شخصيته
أيضاً يتطلب الانصاف من
أولئك الذين ينظرون إليها بعين

الاسلامى عند وفاته كان علما صغيرا بالقياس إلى دولة خلفائه ، فالجواب على ذلك أن عوامل الشقاق جميعا كانت كامنة في بلاد العرب أيام حياته فلم يظهر منها شيء حتى فارق الحياة . .

ثم قال بعد استطراد وجيز :
« كان رجلا لم يخذله رأى السيد قط ، ومن أنكر عليه ذلك فإنما يلج في إنكاره على الرغم من الدلائل البينة على رجاحته وفطنته وفهمه الصحيح الآخرين ولما كان يجرى في العالم من حوله . .

ومن كتاب التصوف الدينى فى العصر الحاضر بول برنتون صاحب كتاب النفس العليا وكتاب الحقيقة الباطنة الذى صدرت منه ثمانى طبعات ، وفى هذا الكتاب يضرب المثل لمن يعملون فى الدعوة إلى الحق فيقول . . : أن كثرة العدد لا تفيدهم ، وأولئك الأقوام الغافلون ليس لهم حساب ، فانما هم زيادة فى حجم الإنسانية ليس إلا ، وكل ما كانت له قيمة فانما يفعلوه ويهدى إليه فى أول الأمر فئة قليلة ، وقد كان محمد

يقول عن السيدة خديجة زوجته أنها صدقتى حين كذبنى قومي ، فانه مضت عليه ثلاث سنوات وليس له من الاتباع غير ثلاثة عشر . . ثم انتشرت دعوته بين الملايين . .

وفى الكتاب الذى أصدرته مطبعة جامعة برنستون عن الأديان العظمى ، يقول ادوارد جورج صاحب الفصل المخصص للدين الاسلامى : « ان ايمانه الذى لا يتزعزع برسالته الالهية وصدق دعوته يقيمه مثلا فريدا فى التاريخ ، وان اعتقاده بالغيب الذى هو لباب الكثير من وحيه هو اللحمة التى تنسج حولها بشارته وعظاته ، ومن ثم أصبحت رسالة السيادة الربانية العليا ضرورة عاجلة ملحة ، وتلك نواة تلك الرسالة العلوية الموحاة إلى محمد ، وبغيرها لا يتأتى لنا أن نفهم الوحدة فى الإسلام . .

كتب هذا الفصل بروح مستمد من الشرق ، واجتمع فيه ومن عشرة فصول أخرى كتاب وسط عن ديانات الصين والهند واليهودية ومذاهب المسيحية الكبرى : وهى

الارثوذكسية والكاثوليكية
والبروتستانتية ، وكلها مكتوب
بأسلوب كهذا الأسلوب .

ومن أحدث المترجمات إلى اللغة
الانجليزية كتاب العالم البلجيكي هنري
بيرين عن محمد وشارلمان ، وعنوان
الكتاب يشير إلى مضمونه ،
ومضمونه يتلخص في بيان أسباب
الانقلاب الأوربي الذي ينسب في
أوروبا إلى شارلمان ، ولكن المؤلف
يرى أن الفضل فيه لمحمد وأتباع محمد
ويقول في فاتحة الجزء الثاني منه :
« ان الفتح العربي الذي أوقع ما أوقع
من القلق في أوربة وآسية لم تكن له
سابقة ، ولا تقارن سرعته بغير السرعة
التي قامت بهادولة المغول بقيادة أتيل
وجنكيز خان ، وتعمود لنك . .
لولا أن هذه الدول زائلة ودولة
الإسلام باقية ، فلم يزل للإسلام

أتباعه في كل بلد دخله الخلفاء
الأولون ، وقد كان ذيوعه كذيوع
البرق معجزة حقيقية . . .

وبعد ، فليس في الوسع احصاء
كل ما كتب عن النبي في مصنفات
الغرب الحديث ، ولـكننا نتجرى
أن نقبس أحدثه وأدله على اتجاه
الكتابة العصرية في سيرة الرسول
الكريم ، وفيما تقدم من الأمثلة
دلالة كافية ، ومنها نعلم أن احترام
الكتاب لقلبه وكرامة علمه يضطره
إلى اجتناب اللغو الذي شاع في القرون
الماضية ، ولا يزال يشيع فيما يكتبه
المرتزقة من أدعياء الدين والتبشير
بالدين ، وأنه ما من أحد كتب عن
الرسول وتوحي أمانة العلم إلا ردد
فيه قول القرآن الكريم : « انك لعلی
خلق عظيم » ،

عباس محمود العقاد
